معالم الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى من خلال رحلة ابن بطوطة (دراسة وتحقيق)

Milestones of Islamic Civilization in the Middle Ages Through Ibn Battuta's Journey, A Research Study

Akber Ali Javed [1]
Dr. Abdul Majid Nadeem [2]

Abstract:

This article deals with works of Ibn-e- Battuta. Summary of signs of Islamic civlization and culture during the middle ages in view of Travels of Ibn-e-Battuta is presented in it. Ibne-e- Battuta was prince of Muslim travelers. He went on his journey in 1325 (725H), when he was in the age of 20 years. His main purpose of his travel was to go on a Hajj, or a Pilgrimage to Makkah, to perform the fifth pillar of Islam. But he remained in traveling for around 29 years and he covered about more than 75,000 miles visiting the equivalent of 44 modern countries which were mostly under the governments of Muslim leaders of the World of Islam, or "Dar al-Islam" at that time. He faced many dangers and had numerous adventures during the travels. The story of his travels was originally named *"Tohfah Al-Nazzār fī Gharā'ib Al-Amsār wa Ajā'ib Al-Asfār"* (A Gift to Those Who Observe the Wonders of Cities and the Miracles of Traveling). That title is greater than average so the text is generally just called Travel or journey of Ibn Battuta's Rihlah. Renowned as *Rihlah Ibn-e-Battuta* in Arabic. Translations of his travel in many other languages of the world show its great importance. He was died at the age of 73 years on 1377 (779H).

Keywords: *Ibn-e-Battuta, Journeys, tourism, Islamic civilization, culture*

ابن بطوطة، حياته ومكانته وآثاره

هو أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن محمد إبراهيم بن يوسف اللواتي (نسبًا إلى قبيلة لواتة إحدى قبائل البربر).[3] وقد عرف باللواتي نسبةً إلى قبيلة لواتة البربرية كما لقّب بشمس الدين ولكنه اشتهر وعرف بابن بطوطة.[4]

ولد ابن بطوطة في مدينة طنجة، وهذه المدينة تقع على الشاطئ الإفريقي لبحر العدوة (بحر الزقاق) الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي في المغرب العربي، والذي يشتهر الآن باسم: مضيق جبل طارق. وكانت ولادته –كما ذكر ابن جزي–في يوم الإثنين 17 رجب سنة 703هـ (25 شباط "فبراير" سنة1304م).[5]

وهو أعظم الرحالة المسلمين جميعاً وأكثرهم تجوالاً في آفاق الأرض وأوفرهم نشاطًا واستيعابًا للأنباء والأخبار وأشدّهم اهتماماً بالحديث عن الحضارة والحالة الإجتماعية في البلاد التي تجوّل فيها.[6] وقد لقّب بشمس الدين ولكنه اشتهر وعرف بابن بطوطة... سمّي بحق بشيخ الرحالين.[7] وتلقبه جمعية كمبردج في كتبها وأطالسها بأميرالرحالين المسلمين.

---

[1]. PhD Scholar, Department of Arabic, University of The Punjab, Lahore
[2]. Professor, Department of Arabic, University of The Punjab, Lahore

[3] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة، دار إحياء العلوم بيروت الطبعة الثالثة،ص14

Ibn-e-Battutah, *Rihlah Ibn-e-Battutah*, Beirut, Dār Ihyā Al-Ulūm, 3rd edition, p.14

[4] احمد رمضان احمد، الرحلة والرحالة المسلمون ،ص369

Dr. Ahmad Ramadān Ahmad, *Al-Rihlah wa Al-Rihālah Al-Muslimūn*, p. 369

[5] ابن بطوطه، رحلة ابن بطوطة ،ص14

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.14

(Prince of moslems travelers)[8]

وقال الدكتور أحمد رمصان أحمد: "ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحّال العصر، ومن قال رحّال هذه الملة لم يبعد..."[9]

قد بيَّن ابن بطوطة أحوال أسفاره في **"تحفة النظار في غرائب الأمصاروعجائب الأمصار"** وفرغ ابن جزي من تدوينها سنة 757هـ (1356م) وأجزل الثناء عليه عند الختام، ولم ينس ذكر مولاه السلطان أيضاً، فافتخر بأن ذلك الرحالة اختار الاستقرار في دياره دون غيرها.[10] وختمها بقوله: "انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبدالله محمد بن بطوطة أكرمه الله. ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحّال العصر، ومن قال رحّال هذه الملة لم يبعد..."[11]

وتوفي ابن بطوطة في سنة 779هـ(1377م) رحمه الله.[12]

معالم الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى من خلال رحلة ابن بطوطة

الحضارة هي الإقامة في الحضر. ويعيش أهل المدن في حضارة أي في تمدّنٍ عكس البداوة. والمدنيّة فهي التقدم في جلّ الميادين العلمية. ومظاهر التقدم والرقي في ميادين العلم والدين والأدب والفن وغيرها. والثقافة هي أطوار الناس في مساكنهم ومآكلهم ومشاربهم واقتصادهم وسياستهم ولغتهم ودينهم وغيرها. فكثير من الأحيان تختلف ثقافة الناس بعضهم بعضاً في حضارة واحدة. فيمكن أن تكون هناك ثقافات عديدة في الحضارة الواحدة.

وحققت الحضارة الإسلامية والعربية تقدّماً بالغاً في جلّ الميادين العلمية. ولا شك إن فضل الإسلام على العالم كبير لأنه جاء بالحضارة الغنية والعلم والأدب والفنّ والدين الوسطي الصحيح الذي يعمل على العدل والإحسان والمساواة والمودة والحق بين أفراد المجتمع البشري. ونرى أثر الإسلام على المجتمع واضحاً في جميع العصور الماضية، بما له من علماء في جميع المجالات والميادين وقادة وفلاسفة وأطباء وأدباء، الذين تركوا آثارهم في المجتمع البشري أو قدموا منهجهم من العلوم المتبعة حتى وقتنا هذا. فأبحث عن مدى تأثير الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى في هذه المقالة.

---

[6] الزكى، محمد حسن،الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، ص136

Muhammad Hassan Zaki, *Al-Rihālah Al-Muslimūn fī Asūr Al-Wustā,* p.136

[7] احمد رمضان احمد، الرحلة والرحالة المسلمون ، ص369

Ahmad Ramadan Ahmad, Dr., *Al-Rihlah wa Al-Rihālah Al-Muslimūn*, p.369

[8] زركلى، خيرالدين، الأعلام لخيرالدين الزركلي،ج 6، ص236

.Zarkalī, Khair Dīn, *Al-Ā'lām*, 236/6

[9] احمد رمضان احمد، الرحلة والرحالة المسلمون ، ص383

Ahmad Ramadan Ahmad, Dr., *Al-Rihlah wa Al-Rihālah Al-Muslimūn,* p.383

[10] الزكى، محمد حسن،الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، ص137

Muhammad Hassan Zaki, *Al-Rihālah Al-Muslimūn fī Asūr Al-Wustā*, p.137

[11] احمد رمضان احمد، الرحلة والرحالة المسلمون ، ص370

Ahmad Ramadan Ahmad, Dr., *Al-Rihlah wa Al-Rihālah Al-Muslimūn*, p.370

[12] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة، ص22

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.22

وعندما نطالع آثار الحضارة الإسلامية من نظرة ابن بطوطة الملقب بأمير الرحالين نتعرف أنها زاهرةً ومتقدمة من حيث جميع الناحيات الإجتماعية. وكانت الحضارة الإسلامية ومدنيتها وثقافتها راقية في العصور الوسطى أيضاً. وقد قدم إلينا رحالة عربي عظيم أمثلة كثيرة في هذا المضمار في رحلته السماة بـ"تحفة النظار" الشهيرة بـ"رحلة ابن بطوطة". وفي التالي أقدم موجز آثار الحضارة الإسلامية التي تميز المجتمع الإسلامي من سائر المجتمعات العالمية في العصور الوسطى.

وحدة عالم الإسلام:

قال الأستاذ الدكتور حسين مؤنس على معلقاً على رحلة ابن بطوطة: "ولم نجد فيما طالعنا من كتب التراث عندنا ما يصور ترابط الأمة الإسلامية واستقرار قواعدها؛ كما وجدنا عند ابن بطوطة، فبينما نجد الكتب الأخرى تحدثنا عن الحروب والصراعات والغلوات والمجاعات أو تصرفنا عن عالم الواقعصرفاً تامًّا نجد ابن بطوطة يعرض لنا صورة عالم إسلامي مستقر آمن. والسبب ذلك أن الرجل قد قام بهذه الرحلة في عالم أمة الإسلام الواسع دون أن يتأثر كثيراً بما كان يجرى بين الرؤساء في عصره من حروب؛ لأن أمة الإسلام كانت أخرجت نفسها من نزاعات السياسة داخل نطاقها، وعاشت بعيداً عن منازعات الرؤساء، آمنة في ظلّ العقيدة الواحدة، عقيدة التوحيد والسلام.[13]

ضيافة الواردين في الزوايا والمدارس والرُّبُط:

والشيء الآخر الذي يجذب أنظارنا إليه عند مطالعة هذه الرحلة هو نظم الزوايا والمدارس والرُّبُط (جمع رباط) في جميع البلاد الإسلامية. وهي بيوت ينشئها بعض أهل الخير أورجال الطرق الصوفية أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخاص لضيافة الواردين. وقد أنشئتها الجماعة نفسها، وتولت أمرها ورعاية النازلين بها من أموال جمعت لهذا الغرض.

يخبرنا ابن بطوطة عن كثرة المدارس والزوايا بمصر ويقول ابن بطوطة أن الزوايا في مصر كانت كثيرة وأنها تسمى الخوانق (جمع خانقة) وكان الأمراء يتنافسون في بناءالزوايا. وكل زاوية معينة لطائفة من الفقراء بمصر ، وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل الأدب والمعرفة بطريقة التزهد والتصوف. ولكل زاوية عالم كبير يسمى بالشيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب.[14]

قد علمنا أن ابن بطوطة وأصحابه نزلوا في الزوايا أو المدارس أو الربط ونالوا من أهلها ضيافةً وكرامةً بالغةً. وفي ذلك العصر كان الرجال المتخصصون لخدمة الزاوايا أو المدارس يتنافسون في إكرام ضيوفهم. ونلاحظ أمثلة هذه مبثوثة في هذه الرحلة.

وقد أورد ابن بطوطة أمثلة كثيرة التي تدلُّ على إكرامهم البالغ. وظهر منها أيضاً أن أهل هذه الديار كانوا يجتمعون ويحتفلون للضيوف وكانوا يقدمون أنواعاً من الأطعمة والأشربة، وبعد الفراغ من الأكل والشرب كان القراء يقرأون القرآن الكريم بصوت حسان، ثم كان يأتي دور السماع والرقص. وهذا أمر عجيب. كيف كان الجمع بين تلاوة القرآن والسماع والرقص في نفس الوقت؟

---

[13] حسين مؤنس، الدكتور، ابن بطوطة ورحلاته، ص30

Hussain Mū'nis, Dr., *Ibn-e-Battutas wa Rihlātuhū*, p.30

[14] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة، ص56

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.56

تقسيم الناس إلى مراتب وأصناف:

وتكشف لنا رحلة ابن بطوطة عن ناحية أخرى من نواح التنظيم الاجتماعي التي قامت به الأمة من تلقاء نفسها وهي تقسيم الناس إلى المراتب والأصناف: فأما "المراتب" فهم أصحاب الذين عينوا على الوظائف الفكرية والدينية. ورجال الدولة والتجار وأهل الأموال منهم ايضاً. وأما "الأصناف" فهم أهل الحرف اليدوية والصناعات على اختلاف أنواعها من البنائين والنجارين والحدادين والنساجين وصغار التجار وعمال البحر. وقد بيّن المؤرخون عن هذه المراتب وتلك الأصناف. وأخبروا أن أهل كل مرتبة وكل حرفة كانوا يتعاونون فيما بينهم ويكوّنون فيما بينهم شبه رابطة أونقابة. وبدافع ذلك الرباط كانوا يكرمون بعضهم بعضاً."[15]

ونرى براهين ذلك واضحة متعددة في رحلة ابن بطوطة: سلك ابن بطوطة نفسه في سلك القضاة، لأنه —كما يقول— رجل من بيت قضاء. وبعد خروجه من تونس مع الركب تولى القضاء أول مرة[16]، فأصبح يحسب نفسه قاضياً، وصار لا يحلّ إلا على القضاة، فإذا نزل بلدةً ولم يجد فيها زاوية أو رباطاً سأل عن القاضى، ونزل عليه، فإذا لم يجد قاضياً فكان نزوله على الفقيه، فيجد منه القدر والإكرام البالغ.

وأثناء المطالعة علمنا أحيانا كثيرةً أن الناس كانوا يكرمون بعضهم بعضاً بروابط الحرفة والعمل دون أن لاحظنا وجود طبقات اجتماعية، وليس معنى ذلك أن الناس كانوا أهل السياسة أو أن عالم الإسلام كما نراه عند ابن بطوطة —كان مدنية فاضلة أو غنيةً. فقد كان هناك من الفقراء والأغنياء، والأقوياء والضعفاء، ولكن الأمة اجتهدت في إزالة هذه الفوارق والاختلافات وتحقيق المثل الأعلى الإسلامي بطريقة تلقائية بدون تكلف. وهذا هو عالم الأمة الإسلامة، وعالم الإسلام الآخر الذي كشفت رحلة ابن بطوطة النقاب عنه.[17]

عصر الأولياء والصوفية:

كان ابن بطوطة مولعاً بلقاء الأولياء والصالحين في كل بلد من البلاد. وظهر كأنه أحد من الصوفياء حيث ذكرهم دائماً بالخير وأورد كثيراً من كراماتهم في الرحلة. وقال الأستاذ الدكتور حسين مؤنس على معلقاً على الرحلة: "على طول رحلة ابن بطوطة نلاحظ اهتمامه الشديد بلقاء الأولياء وشيوخ الصوفية والزهاد وأصحاب الكرامات، ويبلغ اهتمامه بهذا الأمر أن يتخلف عن الركب، ويمضى لزيارة عابد زاهد منفرد بنفسه في مكان بعيد، ليسأله الدعاء والبركة. وهو يؤمن إيماناً شديداً بأولئك الأولياء، ويعطينا الأدلة على صدق ولايتهم، واستجابة الله سبحانه وتعالى لشفاعتهم، وما يتوجهون به إليه من رجاء. وفي وقت من الأوقات نجد ابن بطوطة على وشك أن يترك الرحلة، وينقطع لخدمة واحد من أولئك الأولياء، ولكن حب الرحلة غلب عليه، فترك الفكرة ومضى.[18]

---

[15] حسين مؤنس، الدكتور، ابن بطوطة ورحلاته، ص23

Hussain Mū'nis, Dr., *Ibn-e-Battutas wa Rihlātuhū*, p.23

[16] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة،ص37

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.37

[17] حسين مؤنس، الدكتور، ابن بطوطة ورحلاته،ص25

Hussain Mū'nis, Dr., *Ibn-e-Battutas wa Rihlātuhū*, p.25

[18] ايضاً، ص26 ibid, p.26

وهذه الناحية عند ابن بطوطة تعطينا جانباً هامًّا من جوانب ملامح العصر الذي عاش فيه، وهو القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي، لأن هذا العصر في عالم الإسلام كله كان عصر الأولياء وأصحاب الكرامات والطرق الصوفية وشيوخها.[19]

ولقد كانت هذه الطوائف موجودة منذ زمن طويل، ولكن ظروف اليأس الشامل لأجل هجوم المغول عليهم زادتهم أهمية فظهروا في المجتمع وكثرت أعدادهم وتنوعت أشكالهم، وأصبحوا يمثلون قوة روحية كبيرة أفاد منها الناس كثيراً. ونحن في العادة نقول: إذا عجز الطبي ظهر الولي."

في عصر ابن بطوطة – وهو القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) – وجدنا لكل مدينة عدداً من الأولياء يحتلون مكانة رفيعة في المراكز الروحية، ولهم سلطان وشوكة معترف به حتى لنستطيع أن نقول: إنهم كانوا أصحاب الوظائف الرسمية، يعترف بها الناس، بل يعترف بها أصحاب السلطة والحكومة. والناس يرون أن هؤلاء الأولياء هم السلاطين بالفعل."[20]

دفع الضرائب والمكوس المفروض عند المرور من مصر إلى الشام:

يذكر ابن بطوطة أن كان لا بد لكل من أراد المرور من مصر إلى الشام أو من الشام إلى مصر أن يدفع الضرائب المعينة إلى الحكام المتوكلين على الثغر على نقطة الحدود بين مصر والشام عند قطيا وقال في ذلك: "وبها تؤخذ الزكاة (بوثيقة مرور تدل على أنه دفع الضرائب والمكوس المفروضة على الانتقال بين مصر والشام، وكانت مبالغ كبيرة، ومع ذلك كانت تسمى زكاة) من التجار وتفتش أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشد البحث، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود. ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب. ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر. ولا إلى مصر إلا ببرائة من الشام احتياطاً على أموال الناس، وتوقياً من الجواسيس العراقيين".[21] وقال الأستاذ الدكتور حسين مؤنس على معلقاً على الرحلة:

"فإن أخذ الضرائب على الحدود كان أمراً هامًّا بالنسبة لإيرادات السلطنة في مصر ونيابة السلطنة في الشام. ويبدو كذلك أنهم يخافون الجواسيس.'' [22]

صناعة الصابون:

أورد ابن بطوطة ذكر صناعة الصابون عندما زار مدينة سرمين وتحدث عن كيفية هذه الصناعة فى هذه المدينة وقال:

"بها يصنع الصابون الآجري، ويجلب إلى مصر والشام. ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدى، ويصبغونه بالحمرة والصفرة. ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب إليها."[23]

---

[19] حسين مؤنس، الدكتور، ابن بطوطة ورحلاته، ص27

Hussain Mū'nis, *Ibn-e-Battuta wa Rihlātuhū,* , p.27

[20] ايضاً-

ibid

[21] ابنِ بطوطہ، رحلة ابن بطوطة، ص73

Ibn-e-Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.73

[22] حسين مؤنس، الدكتور، ابن بطوطة ورحلاته، ص48

Hussain Mū'nis, Dr., *Ibn-e-Battutas wa Rihlātuhū*, p.48

[23] ابنِ بطوطہ، رحلة ابن بطوطة، ص85

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.85

وقال الأستاذ الدكتور حسين مؤنس في بحثه لهذه الرحلة: "وكان بعض علمائنا ينكرون أننا نحن اخترعنا الصابون، وعند ابن بطوطة الردّ الحاسم، فهو يقول: إن بهذه البلدة سرمين يصنع الصابون الآجري: أي في صورة قطع على هيئة الآجر، وفي ظني أن هذا الصابون النابلسي، ثم يقول: إن بهذه البلدة سرمين "يصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدى، ويصبغونه بالحمرة والصفرة." وقبل ذلك بقرنين ذكر الإدريسي صناعة الصابون في البهنسا من مدن مصر. وعن العرب أخذ الغرب الصابون، صناعةً واسماً، وأول ما ظهر في أوروبا كان في إيطاليا باسم Soppone وفي إسبانيا النصرانية، وكانوا ينطقونه به إذ ذاك Jobon،واليوم Jabon وفي فرنساSavon."[24]

فظهر من هذا البحث أن المسلمين لهم فخر وسبقة على العالم في اختراع صناعة الصابون.وهذا يدلّ على حضارة راقية ومدنية عالية في المجتمع الإسلامي كما يفهم أيضاً في عصرنا الحاضر أن اغتسال اليد بالصابون المطيب يعدّ من الرقي المدني. ويظهرمهارة المسلمين في هذه الصنعة أيضاً. وفي هذا فخر وسبقة لهم على سواهم في العالم.

استخدام الحمام الزاجل للمراسلة:

وأخبر ابن بطوطة عن استخدام الحمام الزاجل للمراسلة في ذلك العصر وأورد حكاية رجل مجهول الذي وردبحصون الإسماعيلية الفداوية عند الطائفة الفداوية فادعى الهداية وتكاثر الناس عليه تعدهم بتملك البلاد وقسّم بينهم بلاد الشام، وأمرهم بالخروج إلى البلاد المعينة لهم وأعطاهم من ورق الزيتون، وكان يقول لهم: "استظهروا بها، فإنها كالأوامر لكم." فإذا خرج أحدهم إلى بلدة أحضره أميرها ويقول له: "إن الإمام المهدي أعطاني هذا البلد، فيقول له: أين الأمر؟" فكان يخرج ورق الزيتون. فيضرب أو يحبس. ثم إنه أمر ذلك الرجل أتباعه بالتجهيز لقتال المسلمين وأن يحضروا بمدينة جبلة للقتال. وأمرهم أن يأخذوا قضبان الآس عوض السيوف، ووعدهم أنها تصير سيوفاً في أيديهم عند القتال. فهاجموا مدينة جبلة، وأهلها في صلاة الجمعة، فدخلوا الدور، وهتكوا الحريم. وثار المسلمون من مسجدهم، فأخذوا السلاح وقتلواهم كيف شاءوا. واتصل الخبر باللاذقية، فأقبل أميرها بهادر عبدالله بعساكره. وطيرت الحمام بالأخبار إلى طرابلس. فأتى أمير الأمراء بعساكره واتبعوهم حتى قتل منهم نحو عشرين ألفاً، وتحصن الباقون بالجبال...[25]

وظهر من هذه الحكاية أن طوائف من الناس كانوا على غاية السفاهة والغباوة في ذلك العصر كما نرى أمثالهم في عصرنا الحاضر في بعض الأحيان. وظهر أيضاً أن الحمام الزاجل كانت تستخدم للمراسلة آن ذاك.

صناعة الأطباق وملاعق الخشب:

وزار ابن بطوطة مدينة بعلبك وحدثنا عن صناعة الصحاف – أي الأطباق – من الخشب هناك – وقال: إن أهل بعلبك يصنعون الأطباق المسماة بالدُّسوت، وكذلك يصنعون ملاعق الخشب ويبلغ من مهارة أهلها في صناعة الدسوت أنهم يصنعون منها نوعاً يضم الواحد منها عشر صحاف، واحداً في داخل الآخر، وعشر ملاعق تدخل واحدة منها في الأخرى

---

[24] حسين مؤنس، الدكتور، ابن بطوطة ورحلاته، ص52

Hussain Mū'nis, Dr., *Ibn-e-Battutas wa Rihlātuhū*, p.52

[25] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة، ص97

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.97

وتوضع في جراب." ثم قال مبينًا عن مهارة أهل بعلبك في هذه الصناعة:" ويصنعون لها غشاء من جلد، ويمسكها الرجل في حزامه، وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك، فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة، ثم يخرج من جوفها تسعة."[26]

وهذا يدلّ على حضارة راقية ومدنية عالية في المجتمع الإسلامي كما يفهم أيضاً في عصرنا الحاضر أن استخدام الصحاف أي الأطباق والملاعق الخشبية يعدّ من الرقي المدني. ويظهر مهارة المسلمين في هذه الصنعة أيضاً. وفي هذا فخر وسبقة لهم على سواهم في العالم. وقال الأستاذ الدكتور حسين مؤنس في بحثه لهذه الرحلة:

"وهذه الملاحظة جديرة بأن تسترعى إليها أنظار من يحسبون أن تناول الطعام باليد تقليد عربي أصيل، وأننا لم نعرف الأكل بالملاعق – إلا عن الإفرنج!"[27]

صنيع الناس في الوباء الذي انتشر في دمشق:

كان الناس يلجئون ويتوجهون إلى الله تبارك عند نزول المصيبة إليهم وعند انتشار الوباء كان صنيعهم هذا أيضاً. وقد حكى ابن بطوطة حكاية الوباء الذي انتشر في دمشق وقال أنه شاهد من تعظيم أهل دمشق لمسجد الأقدام (من مشاهد دمشق الشهيرة البركة، يقال: إنها أثر قدم موسى عليه السلام) ما يعجب منه عند انتشار وباء الطاعون الأعظم بدمشق في أواخر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين (749هـ). وهو أن أرغون شاه ملك الأمراء نائب السلطان أمر منادياً ينادى بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخون بالسوق. فصام الناس ثلاثة أيام متوالية، كان آخرها يوم الخميس... وخفف الله تعالى عنهم الوباء الذي انتشر في دمشق عندما انتهى عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد—(وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفاً في يوم واحد). وقال مخبراً عن منارة دمشق وقال: "بالباب الشرقي من دمشق منارة بيضاء يقال إنها التي ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد في صحيح مسلم."[28]

كثرة الأوقاف والأرزاق المعينة عند المسلمين:

وناحية أخرى التي تجذب أنظارنا من الحضارة الإسلامية التي قامت بها الأمة الإسلامية من تلقاء نفسها التي تكشف لنا عنها هذه الرحلة هي كثرة الأوقاف والأرزاق المعينة للمعلمين والمتعلمين. وقد ذكر ابن بطوطة عن الأوقاف والأرزاق المعينة للمعلمين والمتعلمين بعد أرباض دمشق وقال: "... وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول. وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس، وبداخل البلد أيضاً مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا، وأهل الصالحية كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل."[29]

---

[26] ابنِ بطوطہ، رحلة ابن بطوطة، ص100

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p..100

[27] حسين مؤنس، الدكتور، ابن بطوطة ورحلاته، ص53

Hussain Mū'nis, Dr., *Ibn-e-Battutas wa Rihlātuhū*, p.53

[28] ابنِ بطوطہ، رحلة ابن بطوطة، ص116

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.116

[29] ايضاً، ص117

Ibid, p.117

قد علمنا من هذا الخبر أن الحكومة الإسلامية كانت تتحمل جميع مصارف المعلمين والمتعلمين، وكانت للمدارس أوقاف معينة في البلاد الإسلامية. وبهذا ظهر أيضاً عناية المسلمين بالعلم وحرصهم على العلوم الإسلامية.

قد بيّن ابن بطوطة عن كثرة الأوقاف بدمشق بالتفصيل، وقال: "الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات... ومنها أوقاف لفك الأسارى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل... ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير."[30]

وكان نظم أوقاف الأواني أقيم عند المسلمين في ذلك العصر أيضاً. وقد أورد ابن بطوطة حكاية عجيبة في ذلك، وقال: "مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم، إجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بدّ له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره وهو أيضاً ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا."[31]

وهذا المثل الأعلى يدلّ على حضارة المسلمين الذهبية وحسن صنيع أصحاب السلطات برعاياهم في عصر ابن بطوطة. وهذا نوع التأمين مجاناً. وفي عصرنا الجديد توجد شركات التأمين أو التضمين التي تقدم مثل هذه الخدمات، أي تأمين الحياة أو السيارة أو البيت أو الدكان أو المصنع وغيرها في البلاد كلها، ولكنها تقدم هذه الخدمات على دفع مبالغ معينة فقط.

وذكر ابن بطوطة عن كثرة أوقاف دمشق وقال: "فهناك أوقاف للعاجزين عن الحج، وأوقاف لتجهيز البنات إلى أزواجهن، وأوقاف لفكاك الأسارى، وأوقاف على تعديل الطريق ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جانبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك."[32]

ويبدو أن ابن بطوطة حسن الظن فصدق ما قال له الفقهاء، لأنهم كانوا هم الأوصياء على هذه الأوقاف، فإذا قرأنا كتاب "منامات الوهراني" رأينا فيها حديثا عجبا عما كان يصيب الأوقاف في مصر والشام."[33]

التنافس في عمارة المساجد والزوايا والمدارس:

وجانب آخر الذي يجذب أنظارنا إليه في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى هو التنافس في عمارة المساجد والزوايا والمدارس. وقال ابن بطوطة: "وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بدّ له أن يتيسر له وجه من المعاش، من إمامة المسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد، يجيء إليه فيه رزقه،

---

[30] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة،ص119

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.119

[31] ايضاً، ص120

Ibid, p.120

[32] ايضاً، ص118

Ibid, p.118

[33] حسين مؤنس، الدكتور، ابن بطوطة ورحلاته، ص55

Hussain Mū'nis, Dr., *Ibn-e-Battutas wa Rihlātuhū*, p.55

أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة. ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر، من حراسة البستان أو أمانة الطاحونة أو كفالة الصبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح، ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك."[34]

الإحتفال بنسبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم:

كان الاحتفال بنسبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم قد بدأ في العصر الوسيط أيضاً كما أخبرنا صاحب هذه الرحلة الشهيرة. وقد أورد ابن بطوطة ذكر الإحتفال بنسبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم وهذه أول مرة نجد ذكر الإحتفال بهذه النسبة عن قاضي مكة، وقال: "قاضي مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الإمام العالم محي الدين الطبري، وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين، وحسن الأخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة، يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة، وخصوصاً في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين. وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيراً، وجميع صدقاته وصدقات أمرائه تُجرى على يديه."[35]

وظهر من هذا أن حفلة الإطعام بنسبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم قد بدأت قبل زيارة ابن بطوطة لمكة المكرمة (في عام 728ھ / 1328م) لأننا لم نجد ذكر مثل هذه الحفلات بنسبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة ابن جبير الذي كانت رحلاته بين 578ھ و581ھ في زمن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى. وقد كانت رحلته في صورة يوميات ومذكرات. ومن عادة الشيخ الرحالة ابن جبير أنه كان يذكر عوائد الناس واحتفالاتهم بنسبات مختلفة، وأورد بعض الأمثلة في هذا المضمار: "وفي ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه. أعني من رجب ظهر لأهل مكة أيضاً احتفال عظيم في الخروج إلى العمرة لم يقصر عن الاحتفال الأول..."[36]

وقال في احتفال ليلة النصف من شعبان: "فشاهدنا ليلة السبت، التي هي ليلة النصف حقيقة، احتفالاً عظيماً في الحرم المقدس إثر صلاة العتمة..."[37] وقال ابن جبير عند كان مسافراً في حدود الشام في شهر ربيع الأول من سنة ثمانين (580ھ): "وأسرينا ووصلنا مدينة منبج مع الصباح من يوم الجمعة الحادي عشر لربيع المذكور، والثاني عشر ليونيه... ووصلنا بزاغة ضحوة يوم السبت الثاني عشر لربيع المذكور."[38] ثم وصف بلدة بزاغة وأهلها مفصلاً وقال أخيراً: "ورحلنا منها في الليل وأسرينا إلى الصباح، ووصلنا مدينة حلب ضحوة يوم الأحد الثالث عشر لربيع الأول، والرابع والعشرون ليونيو."[39]

---

[34] ابنِ بطوطہ، رحلة ابن بطوطة، ص120

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.120

[35] ايضاً، ص162

Ibid, p.162

[36] ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار و مكتبة الهلال، بيروت 1986م، ص102

Ibn-e-Jabīr, *Rihlah Ibn-e-Jabīr*, Beirut, Dār wa Maktabah al-Hilāl, 1986, p.102

[37] ابنِ بطوطہ، رحلة ابن بطوطة، ص106

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.106

[38] ايضاً، ص200

Ibid, p.200

[39] ايضاً، ص202

Ibid, p.202

وقد علمنا أن الإحتفال بميلاد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن رائجاً في ذلك العصر. ولأجل ذلك لم يذكر ابن جبير أي احتفال بنسبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم في رحلته الشهيرة.

الافتراق الفقهي بين المسلمين في عصر ابن بطوطة (728هـ):

وجانب آخر الذي يلفت أنظارنا إليه هو اختلاف فقهي بين المسلمين في ذلك العصر. وكان هذا الإختلاف سبب الإفتراق بينهم. وقد ذكر ابن بطوطة عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم أنه كان هناك أربعة أئمة من المذاهب الأربعة يؤمون الناس في صلاة الوقت الواحد في بيت الله الحرام، وقال: "فمن عادتهم أن يصلي أول الأئمة إمام الشافعية، وهو المقدم من قبل أولي الأمر. وصلاته خلف المقام الكريم، مقام إبراهيم عليه السلام في حطيم له هناك بديع. وجمهور الناس بمكة على مذهبه. فإذا صلى الإمام الشافعي صلى بعده إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني، ويصلي إمام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم يصلي إمام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك، ويوضع بين يدي الأئمة الشمع. وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربعة، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد، كل يصلى بطائفته، ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي. وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو."[40]

وهذه المعلومات عجيبة بنسبة افتراق المسلمين بينهم في عصر ابن بطوطة (728هـ)، حتى أنهم عيّنوا أئمة أربعة من المذاهب الأربعة في بيت الله الحرام الذين كانوا يصلّون بالناس في نفس الوقت.

كيفية السفر مع الركب:

كان الناس يسافرون مع الركب في صورة القوافل في ذلك العصر. وقد خرج ابن بطوطة من مكة في صحبة أمير ركب العراق واسمه البهلوان محمد الحويح من أهل الموصل. وبيّن عن كيفية سفره أيضاً. وذكر أن الرجل كان يجلس في شُقّته على جانب الجمل وصاحب له في شُقة أخرى على جانب آخر، ويتبادلان الحديث أو يلعبان الشطرنج في أثناء السفر، وقد يأكلان على هذه الحال، فإذا شاء أحدهما النوم غفا والجمل سائر في الركب الكبير.

ثم قال ابن بطوطة واصفاً للركب العراقي ورونقه أثناء الرحلة: "وفي هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل القطار والمحارات، فترى الأرض تتلألأ نوراً والليل قد عاد نهاراً ساطعاً."[41]

وهذه الأخبار تدل على كيفية الأسفار ووسائلها وكثرة الناس في القوافل، كما قال ابن بطوطة: "فمن خرج عن الركب لحاجة، ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضلّ عنه لكثرة الناس."[42]

---

[40] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة، ص173

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.173

[41] ايضاً، ص185

Ibid, p.185

[42] ايضاً، ص184

Ibid, p.184

آبار النفط والبترول:

كانت آبار النفط موجودة عند المسلمين منذ عهد قديم. وقد تحدث ابن بطوطة عن النفط وآباره في وصفه للطريق من بغداد إلى الموصل وإليك فقرة من كلام ابن بطوطة: "ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض ويجتمع فيه فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون صقيلاً رطباً وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبية سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضاً قاراً. وبمقربة من من هذا الموضع عين كبيرة فإذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعاً وينقلونه. وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو.ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين، ووصلنا بعدهما إلى الموصل."[43]

وظهر من هذه الأخبار أن تلك البلاد كانت معروفة لأجل آبار النفط منذ عهد قديم. وقد كنا نظن أن آبار النفط ظهرت بعد اكتشافات حديثة في عصرنا هذا فقط. وقد منّ الله على أهل العرب بهذه المنّة منذ قرون ماضية. فله جزيل التشكر والإمتنان على فضله العظيم.

تنظيم الأخية الفتيان:

وجانب آخر الي يلفت أنظارنا إليه في ذلك العصر هو تنظيم الأخية الفتيان. وبهذا التنظيم يتميز المجتمع الإسلامي عن سائر المجتمعات. وقد قال ابن بطوطة عن تنظيم الأخية الفتيان: "واحد الأخية أخي على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج، والأخذ على أيدى الظلمة وقتل الشَّرَط، ومن ألحق بهم من أهل الشر. والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين، ويقدمونه على أنفسهم، وتلك هي الفتوة أيضاً."[44]

وقال الأستاذ الدكتور حسين مؤنس معلقاً على هذه العبارة: "فهؤلاء الأخِيَّة تنظيم فتوة مهمته العناية بالغرباء وقضاء حوائج الناس والوقوف في وجه الظلمة: أي حماية الناس من ظلم الحكام. ولا تروعنا عبارة " وقتل الشُّرَط، ومن ألحق بهم من أهل الشر"، فهي تدل على نظام الشرطة الذي وضع أول الأمر لحماية الناس وإقرار لأمن تدهور أجهزة الحكم كلها إلى نظام ضار بالناس، فأصبح الشرط يحمون رجال الدولة والقوة والجاه، ويعسفون الضعفاء ومن لا حامي لهم، يفرضون عليهم الإتاوات، ويؤيدون الأشرار ويقاسمونهم الأرباح! ...

وهذا دون شك تنظيم اجتماعي وسياسي على جانب كبير من الأهمية ابتكرته الجماعة الإسلامية لحماية نفسها من أذي الأشرار ومن الظالمين من رجال الحكم. وجدير بالذكر أن كل المؤسسات والتنظيمات النافعة في تاريخ الأمة الإسلامية إنما هي من ابتكار جماهير الناس: وكانت إقامتها وإعداد الرجال الذين يقومون بها من إختصاص الأمة لا الحكومة، ومن ذلك

---

[43] حسين مؤنس، الدكتور، ابن بطوطة ورحلاته، ص79

Hussain Mū'nis, Dr., *Ibn-e-Battutas wa Rihlātuhū*, p.79

[44] ابنِ بطوطہ، رحلة ابن بطوطة، ص292

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.292

التشريع والقضاء والتعليم وعلوم الحياة كالطب والصيدلة والفلك وما إلى ذلك. وها نحن أولاء نرى كيف كان نظام الأخية نظاماً شعبيًّا أنشأه، أفراد الشعب للقيام بواجبات عجزت الحكومة عن القيام بها."[45]

نظام راتب يوميٌّ وراتب سفريٌّ(TA/DA):

قدّم ابن بطوطة معلومات قيمة حول نظام حكومي آنذاك وأخبر أن الأمراء والعمّال كانوا يأخذون النفقة عند مقامهم ونزولهم في دار السيادة، وعند انصرافهم إلى منازلهم كانوا يأخذون الزاد كذلك. وقد نجد في عصرنا الحاضر مثل هذا النظام الحكومي في جميع البلاد العالمية. وكان لأمراء والعمال والمؤظفون يأخذون الأجر عند القيام خارج منازلهم لأداء الشؤون الحكومية في صورة راتب يومي(Daily Allowance) وراتب سفري (Travel Allowance). ولعل الناس أخذوا هذا النظام الحكومي من المسلمين في العصور الوسطى.

وإليك فقرة من كلام ابن بطوطة أثناء سفره إلى مدينة سيواس، وقال فيها: "وهي من بلاد العراق، وأعظم ما له بهذا الإقليم من البلاد، وبها منزل أمرائه وعماله. مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة بالناس، وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة، لا ينزلها إلا الشرفاء، ونقيبهم ساكن بها. وتجرى لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره ويزودون إذ انصرفوا."[46]

وجود معادن الفضة والنحاس:

البلاد الإسلامية كانت غنية بسبب معادن الفضة والنحاس في ذلك العصر كما ذكر ابن بطوطة عند سفره إلى مدينة كُمِش، وقال: "وهي من بلاد ملك العراق، يأتيها التجار من العراق والشام، وبها معادن الفضة." ثم توجه إلى مدينة أرزَنجان (وهي عاصمةErzincan, Turkey تقع في شرق تركيا) وأخبر أن هناك معادن النحاس، وقال فيها:"وهي من بلاد صاحب العراق. مدينة كبيرة عامرة، وأكثر سكانها الأرمن. والمسلمون يتكلمون بها التركية. ولها أسواق حسنة الترتيب. ويصنع بها ثياب حسان تنسب إليها. وفيها معادن النحاس، ويصنعون منه الأواني..."[47]

وظهر من هذه العبارة أن تلك البلاد كانت غنية بسبب معادن الفضة والنحاس فيها. وقد علمنا أيضاً أن آبار النفط أي بترول كانت توجد بقرب موصل. وتقع هذه المدن كلها في منطقة واحدة.

إحراق الأرامل مع بعولتهن عند الهنود:

كان إحراق الأرامل مع بعولتهن عند الهنود شائعاً في عصر ابن بطوطة كما وصف قصة إحراق الأرامل مع بعولتهن الذين تدركهم المنية بتفصيل بالغ وهو آنذاك بمدينة تعرف بأبحري (وفي بعض الطبعات: بأحجري). والصواب عند الأستاذ الدكتور

---

[45] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة،ص293

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.293

[46] ايضاً، ص303

Ibid, p.303

[47] ايضاً، ص305

Ibid, p.305

حسين مؤنس هو مدينة أمجري Amjari.[48] وأكثر سكانها الكفار، وأميرها مسلم من سامرة. وقال ابن بطوطة: "إحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك، ونسبوا إلى الوفاء. ومن لم تحرق نفسها، أقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ولبست خشن الثياب ولكنها لا تكره على إحراق نفسها."[49]

ووصفه طويل ممتع وإن كان المنظر بشعاً، ونجتزئ منه بالفقرة التالية نصف مشهد إحراق ثلاث أرامل: "ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على إحراق أنفسهن، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب، كأنهن يودعن الدنيا. ويأتي إليهن النساء من كل جهة. وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار. وكل إنسان من الكفار يقول لها: أبلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي، وهي تقول: نعم، وتضحك إليهم. وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق."[50]

ثم وصف بعد ذلك مشهد الإحراق بكل تفصيل. وأخبر أنهم يرمون برماد هؤلاء المحرقين في نهر الكنك، وهو الذي إليه يحجون أيضاً. وقد أعاذ الله المسلمين من مثل هذه الفضائح. فالحمد لله على ذلك.

وقال الشيخ عبدالهادي التازي في مقالته "مع ابن بطوطة في بلاد الهند والسند": "لقد كان الرحالة المغربي أول من تحدث من العرب عن حالة الإحراق بالهند وكان أول من تحدث أيضاً في مقطع لاحق عن استعانة المحروقين بدهن الصندل، الذي يعوضه اليوم البنزين الممتاز."[51]

حفلات العرس:

ذكر ابن بطوطة أثناء قيامه بمدينة دهلي أن حفلات العرس كانت معروفة في الهند في ذلك العصر ورأى الناس يحتفلون بعرس الأمير سيف الدين عندما زار الحوضين العظيمين بخارج مدينة دهلي وأخبر أن عليهما قباب كثيرة وفيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين. وقال في حوض الخاص: " .... ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب في عرس الأمير سيف الدين غدا بن مهنا. لكل واحد منهم مصلى تحت ركبته، فإذا سمع الأذان قام فتوضأ وصلى."[52]

وظهر من هذه العبارة أن حفلات العرس كانت تقام في عصر ابن بطوطة أيضاً. وقد تنعقد حفلات العروس كثيرة في المدن والقرى المختلفة في باكستان وبهارت(India)حتى في عصرنا الحاضر. وتعدّ هذه العروس من التقاليد الاجتماعية والدينية. وتقام فيها الأسواق الكبيرة للبيع والشراء واللعب والطرب. وفي أغلب الأحيان تضرب الطبول على قبور الرجال الصالحين ويرقص

---

[48] حسين مؤنس، الدكتور، ابن بطوطة ورحلاته، ص157

Hussain Mū'nis, Dr., *Ibn-e-Battutas wa Rihlātuhū*, p.157

[49] ابنِ بطوطہ، رحلة ابن بطوطة، ص423

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.423

[50] ايضاً- Ibid

[51] مجلة دعوة الحق، العدد 287 جمادي 1 – جمادي 2 – رجب 1412هـ/ يناير فبراير 1992م

Mujallah *Dawah Al-Haq*, 1992, p.287

[52] ابنِ بطوطہ، رحلة ابن بطوطة، ص430

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.430

الناس عليها رقصاً محلّياً. وعلى هذا النحو كانت أسواق العرب تعقد في العصر الجاهلي. ومن أشهر أسواقها سوق عكاظ وسوق ذوالمجاز وسوق ذوالمجنة.

رسم التبرك بالقبور:

كان رسم التبرك بقبور الصالحين وغير الصالحين رائجاً في ذلك العصر. وقد أورد ابن بطوطة قصة قتل السلطانة رضية التي قتلها حرّاث عندما جاءت هي إليه في زي الرجال وطلبت منه ما تأكله وغلب عليها النوم، فنظر إليها الحرّاث فعلم أنها امرأة فقتلها وسلبها. وقال: "ودفنت هنالك وبني عليها قبة وقبرها الآن يزار ويتبرك به، وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجون، على مسافة فرسخ واحد من المدينة."[53]

وهذه القصة تدلّ على أن عامة الناس كانوا لا يميّزون بين الصالحين الذين يتبرك بهم – إن جاز ذلك – وبين غيرهم، فليس أهل للتبرك بهم كل من في القبور، فالقبور بها الصالح والطالح ومستور الحال. وهكذا في بلادنا عوام الناس يتبركون من مقابر هير ورانجا (وهما بطلا أسطورة العشق المحلية) وسَمّي (Sammi) العاشقة الصادقة وسَسّي وپُنُّوں(Sassi & Punnu)العاشقَين المشهورين. ومثل هذه المزارات والمقابر وافرة جدًّا. وتوجد هناك في كل قرية وفي كل حلة من مدينة مقابر كثيرة متعددة التي هي مرجع الخلائق وموضع التبرك والتوسّل. وهذا الرسم العادي مستمرّ وجارٍ حتى في عصرنا الحاضر في باكستان.

النظم الكامل للحصول على المعلومات:

أخبر ابن بطوطة أنه كان هناك نظماً كاملاً للحصول على المعلومات في الهند وذكر أن السلطان قد عيّن عيونه وجواسيسه مع كل أمير لمعرفة الأحوال. لأجل ذلك تمكّن من الفتح على أعدائه الكثيرين. وقال: "ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكاً له يكون عيناً عليه، ويعرفه بجميع حاله، ويجعل أيضاً جوارى في الدور يكن عيوناً له على أمرائه، ونسوة يسميهن الكناسات، يدخلن الدور بلا استئذان، ويخبرن الجوارى بما عندهن، فتخبر الكناسات بذلك االمخبرين، فيخبر بذلك السلطان. ويذكرون أن بعض الأمراء كان في فراشه مع زوجته، فأراد مماستها، فحلفته برأس السلطان أن لا يفعل، فلم يسمع منها، فبعث إليه السلطان صباحاً، وأخبره بذلك، وكان سبب هلاكه."[54]

وهذه القصة عجيبة التي تدلّ على النظم الكامل للحصول على المعلومات والمعرفة من جميع الأمراء في جميع البلاد الهندية في ذلك العصر. ونعلم أنه لابدّ من التجسّس في إدارة الشؤون الحكومة. وقد عيّن السلطان المذكور عيوناً وجواسيس لهذا الغرض. وقد كان تصل إليه الأخبار حتى ما وقع بين المرْء وزوجه في الفراش كما مرّ آنفاً. لأجل ذلك تمكن للسلطان أن يكون غالباً على السلطة لطول الزمان.

نظام الجنس بالجنس (Barter System):

تعرفنا من مطالعة هذه الرحلة أن نظام الجنس بالجنس كان رائجاً في عصر ابن بطوطة كما أخبر أن صرف(عملة) أهل الجزائر الودع، وهو حيوان بحري. وهم يبيعونه من أهل بنجالة بالأرز. وهو أيضاً صرف أهل بلاد البنجالة، أهل السودان. ظهر

---

[53] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة، ص435

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.435

[54] ايضاً، ص501

Ibid, p.501

من هذا أن الناس كانوا يبيعون ويشترون الأشياء بالأشياء في بعض البلدان في عصر ابن بطوطة. ومن المعروف أن هذا نظام الجنس بالجنس (Barter System) كان معروفاً منذ قديم في المجتمع.[55]

رسم زيارة قدم آدم عليه السلام:

كان المسلمون يأتون إلى جبال سري لنكا لزيارة قدم آدم عليه السلام منذ قديم كما جاء ذكره في رحلة ابن بطوطة عند زيارته إلى جبال سرنديب الذي في أعلاه أثر قدم آدم عليه السلام، وقال في وصفه: "وهو من أعلى جبال الدنيا. رأيناه من البحر، وبيننا وبينه مسيرة تسعة. ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل، قد حال بيننا وبين رؤية أسفله. وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق، والأزاهير الملونة، والورد الأحمر على قدر الكف."[56]

ثم أخبر بهذا الجبل طريقان يؤديان إلى قدم آدم عليه السلام. وقال: "أحدهما يعرف بطريق (بابا)، والآخر بطريق (ماما). يعنون آدم وحواء عليهما السلام. فأما طريق ماما فطريق سهل، عليه يرجع الزوار إذا رجعوا. ومن مضي عليه فهو عندهم كمن لم يزر، وأما طريق بابا فصعب، وعر المرتقى."[57]

وقد علمنا من هذه الفقرة أن اللفظين (بابا) و(ماما) كانا مستعملين في ذلك العهد. وقد نحسب أن هذين اللفظين (بابا) و(ماما) قد وردا في لغاتنا من لغة أهل الأروبا. وهذا وهم منا فقط. ولعل أصل هذي اللفظين من لغة أهل سرنديب كما وجدناهما في هذه الرحلة.

ذكر التكشيف في البلاد الأفريقية:

أورد ابن بطوطة ذكر التكشيف (الكشّاف بتعبيرنا اليوم Guide)، وقال: "التكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة، فيتقدم إلى أيوالاتن يكتب الناس إلى أصحابهم بها، ليكتروا لهم الدور، ويخرجون للقائهم بالماء، مسيرة أربع. ومن لم يكن له صاحب بأيوالاتن،كتب إلى من شهر بالفضل من التجار بها، فيشاركه في ذلك. وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء، فلا يعلم أهل أيوالاتن بالقافلة، فيهلك أهلها، أو الكثير منهم."[58]

وأخبر أيضاً أن الشياطين كثيرة في تلك الصحراء ، فإن كان التكشيف واحداً منفرداً لعبت به، واستهوته حتى يضل عن منزله فيهلك، لأنه لا طريق يظهر بها ولا أثر، إنما هي رمال تسفيها الرياح، فتشاهد جبالاً من الرمل في مكان، ثم تراها قد انتقلت إلى مكان سواه، والدليل هنالك من كثر ارتداده في تلك الصحراء، وكان هو ذو قلب ذكي. وأهل رفقته اكتروا الدليل (التكشيف) الذي كان أعور العين الواحدة، مريض الثانية، ولكنه كان أعرف الناس بالطريق. واكتروه في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب. وقال في وصفها: "وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا، فاستبشرنا بذلك. وهذه الصحراء منيرة ينشرح الصدر فيها، وتطيب النفس. وهي آمنة من السراق. والبقر الوحشية بها كثيراً، يأتى القطيع منها يقرب من الناس

---

[55] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة، ص:501

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.501

[56] ايضاً، ص610

Ibid, p.610

[57] ايضاً ص610 Ibid

[58] ايضاً، ص688 Ibid, p.688

فيصطادونه بالكلاب والنشاب. لكن لحمها يولّد العطش، فيتحاماه كثير من الناس لذلك. ومن العجائب أن هذه البقرة إذا قتلت، وجد في كروشها الماء. ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها، ويشربون الماء الذي فيه. والحيات أيضاً بهذه الصحراء كثيرة."[59]

اعتقاد الناس بكرامات الأولياء:

قد ذكرنا فيما تقدم أن ذلك العصر كان عصر الأولياء والصالحين. وعلى طول رحلة ابن بطوطة لاحظنا اهتمامه الشديد بإيراد حكايات كرامات الأولياء وشيوخ الصوفية والزهاد وأصحاب الكرامات. فهذا يدلّ على حسن اعتقاد عامة الناس بكرامات الأولياء. وظهر منها أيضاً أن سرد الحكايات والقصص كان معروفاً في المجتمع الإسلامي في ذلك العصر أيضاً.
قد وجدنا هذه الرحلة حافلةً بالحكايات العجيبة. أثناء زيارة كل بلد من البلاد أورد ابن بطوطة حكاية أو قصة حسب اقتضاء المناسبة. وأقدم حكاية واحدة من هذه الحكايات على سبيل المثال فقط.

حكى ابن بطوطة حكاية في سبب تسمية الشيخ أرسلان بالباز، وقال أنه كان خديماً للشيخ الولي أحمد الرفاعي رضي الله عنه وكان معه في الحج، وحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمع بالشيخ الرفاعي بالموقف الكريم بعرفة وذكر الشيخ الرفاعي أنه ترك عذقاً له على النخلة عند زاويته بأم عبيدة بمقربة من مدينة واسط، فقال خادمه أرسلان: "عن أمرك يا سيدي آتيه به. فأذن له. فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين أيديهما، فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازاً أشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء."[60] ولهذا السبب سمي العابد الصالح أرسلان بالباز.

نتيجة البحث:

فظهر من هذا البحث أن الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى كانت من أعظم الحضارات حيث خلد علماء المسلمين ثروة علمية وأدبية لمن بعدهم ، وكانوا أصحاب الفضل في التنوير الذي حدث لجميع العالم.

وفي النهاية، أرجو أن أكون وفقت في بحثي هذا من أجل الإسهام في توضيح صورة معالم الحضارة الإسلامية في العالم في حقبة تاريخية مهمة من خلال رحلة ابن بطوطة . وقد بذلت ما في وسعي مكرسًا ما يتناسب مع قيمة هذا العمل وأهميته من جهد ووقت، ولا أدعي أنني وصلت إلى الكمال في هذا البحث، و لكنني بذلت كل ما في وسعي ليكون هذا العمل إضافة جديدة في ميدان البحث العلمي، والله ولي التوفيق. وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين فهو نعم المولى ونعم المعين. وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[59] ابنِ بطوطه، رحلة ابن بطوطة، ص689

Ibn.e.Battuta, *Rihlah Ibn-e-Battuta*, p.689

[60] ايضاً، ص115

Ibid, p.115